خبايا المرأة

قبلة .. ثم ضمة .. ثم قضمة!

ليليان

معًا إلى الأبد في نعيم الجحيم

خوفا من أن يموت حتف أنفه ، ويلقى الله وهو عازب . . قرر أن يكمل نصف دينه . . واختارها عذراء . . فهو يحب البليلة بالقمح ، وفطيرة الذرة بالسمن . . والعذراء كالذرة والقمح . . تطحن ثم تعجن ثم تخبز . . ثم تؤكل . . هكذا تقول حكم الرجال . . وتزوج العازب العذراء . . وأكلها . . وكان نهاره أنهر وليله ليلاء .

بعد حب وتيم ، وحيرة وتردد ، خطب الكونت ليون تولستوى (٣٤ سنة) سونيا (١٨ سنة) ابنة صديقه الدكتور بهرز . . وأصر على أن يتم عقد القران بعد الخطبة بأسبوع واحد فقط . . ومن شدة ولعه بالحقيقة قرر أن يكشف خطيبته عن حقيقة نفسه ، وأعطاها يومياته . . وقرأت سونيا عجاياه وبلاياه ، وصعقت . . ولكن الحب يصنع المعجزات ، وبعد الزواج سوف يستقر ويستقيم .

ثم جاء يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٦٢ . . يوم الزفاف . . ودقت الساعة الثامنة مساء موعد عقد القران . . ولم يظهر العريس فى الكنيسة ، ومرت ساعة ونصف ساعة ، وفقدت سونيا الأمل فى الزواج . . ثم ظهر خادمه فى بيتها ، وعرفت أن سبب تأخير عريسها هو عدم عثوره على قميص نظيف يرتديه . . وأخيرا عثر تولستوى على قميص . . وصاحت أجراس الكنيسة . . وأصبحت سونيا الكونتيسة تولستوى . . كما ذكرت فى الأسبوع الماضى .

موال مربع للعروس !

وبعد انتهاء مراسم الزواج عاد العروسان إلى بيت سونيا . . وأصر العريس على السفر فورا رغم الوقت المتأخر ، وحطمت عين حماته بالدمع وعين السماء بالنظر . . فشهر العسل لا يقبل الإرجاء لحظة . . والحماة لابد من الذهاب إليها فورا . . وسهر الكونت فى انتظاره وهو متلهف إلى الشرب من عسله الصفى . . فبعد شهر فقط ستجف أنهار العسل ويقشر البصل ويبكى ، ويقلبه فى الزيت ويكتوى بطشه . . ودخلت سونيا حجرتها وخلعت فستان فرحها . . وارتدت فستان سفر من الصوف الكحلى فى لون ليل بلا نجوم ليتسجم مع رعبها الكحلى من ليلة الدخلة . . وفى انتظار أن يلتقطس عروسه ، قرقش تولستوى مليا بالفستق ، وبلعه بكئوس من الشمبانيا .

ودقت ساعة الفراق . . وانطلق العويل والنحيب . . ومدت الحمدران آذانها حتى لا تصاب بالطرش . . فكل من فى البيت يبكى ويعدد ويولول كأن العريس كجزار ، والعروس شاة متساقى إلى المذبح لنحرها وتسييح دمها . . وكظم الأسد الورد غيظه . . وأخرس زئيره حتى ينتهى الوال المربع والخمس والتمالى والبكائى . . ثم جلس الجميع بصمت لمدة دقيقة ليطلبوا من الله أن يرعى المسافرين ، كما جرت العادة فى روسيا قبل أين وستالين . . وبعد هذا الدعاء الصامت انهالت القبلات والتوصيات على العروسين . . ثم ارتفع من جديد العويل والنحيب وولولت الأم . . ووقرقت البنت . . وزمجر الأسد . . فى الخارج عربة وستة خيول ، وحوذى ومساعد حوذى . . وأيدت الخيل العريس وصهلت . . وعانقت سونيا من جديد أفراد أسرتها ، وقالت لها ثانيا إنها ستموت حزنا من غيرها . . واغرورقت عينا ليزا بالدموع . . فالمسامح كريم . . وقد غفرت لها جريمة سرقتها لعريسها . . وصعدت سونيا فى « التائمة » فهذا اسم عربة المسافرين . . فاخترقت أذنها صرخة رهيبة . . إنها أمها . . فنزلت من جديد وارتمت فى أحضانها . . فرمى العريس حماته نظرة ترعب دولة وامبراطورية . . فأطلقت سراح ابنتها .

وأخيرا ابتعدت الخيل فوق الوحل تحت المطر ، ومن أمامها الليل الدامس ، ومن ورائها رجل يطلق أصابعه بعصبية ، وامرأة مكتئبة ومذعورة . . فهذه هى المرة الأولى التى تفارق فيها سونيا بيتها وأهلها . . وصرخة أمها تدوى فى أذنيها . . وأنين ثانيا يمزق قلبها . . ومن كان حبيبا أصبح زوجها . . والزوج له حقوق رهيبة على زوجته ، تجهل عنها كل شىء ، وهو يخطبها . . إن له وجهين . . واحداً ملاك وآخر لشيطان . . وهى تعرف ذلك ، ألم تسمه عبدا ، دوبليتسكى ، فى قصتها القصيرة . . يا ترى أى وجه سيقدمه لها ؟ ونظرت إليه بطرف عينها ، فوجدته أشواك لحيته . . فانكمشت فى ركنها . . ثم أدارت له رأسها ، فاصطدمت عيناها بنافذة العربة . . إن الدموع تتحدر على خدودها وتغسل زجاجها . . فقلدتها . . وغسلت همومها ، وأفرجت عن دموعها . . فاندهش عريسها . . انزعج . . ثم زمزم . . ثم دمدم بغضب ، واتهمها بأنها لا تحبه مادامت تتألم إلى هذا الحد لفراقها لأهلها . . ماذا تقول له ؟ ! . . إنها خائفة منه ! . . وسكتت ولم ترد عليه . . فاغتاظ من سكوتها ، وتركها تغرق فى دموعها . . ولم يطلق حنفيتها ولم يفتح فمه حتى وصلا إلى محطة إبدال الخيول فى بيريوليفو . . والمحطة ملحقة بها استراحة للمسافرين ، وفى الاستراحة جناح خاص لكبار الزوار يطلق عليه اسم « جناح الامبراطور » . . وفتح ناظر المحطة باب الجناح للكونت وعروسه . . فالكونت تولستوى من عظماء روسيا .

غول . . ومهرة . . وقلعة

وفجأة وجدت سونيا نفسها فى الجحيم ووسط النار . . فكل ما فى الجناح جمر ولهيب ، فالأثاث منجد بالقطيفة الحمراء . . والأرض تغطيها سجادة حمراء . . والنوافذ تتستر عليها ستائر حمراء . . واحمرت خدود سونيا . . وجلست بارتباك فوق جمرة حمراء . . أسفل كتبة حمراء . . فلسعتها النار . . فتكومت عند طرف الكتبة . . واحتفظت بصمتها كأنها فى انتظار الحكم عليها بالإعدام رميا فى النار . . فتشنج عريسها الورد ، ورمى لها نظرة حمراء . . فلم تصطدها ، وتركتها تسقط على الأرض . . ثم عوقا من أن تشعل النظرة حريقا دمنها بقدميها تحت السجادة .

وأحضرت خادمة غلاية الشاى الروسية « الساموفار » وصينية عليها فناجين الشاى . . وانفرجت أسارير العريس ، وقال لعروسه بصوت رقيق :

– هه ! . . ما رأيك لو ضيفتنى وقدمت لى فنجان شاى ؟ !

سمعا وطاعة يا مولاى . . فهو سيدها وتاج رأسها . . وسكبه سواد عينيها وعرشه جلجلان قلبها . . وشربت معه فنجان شاى ، فلقد جف ريقها من الصمت . . فقرقر بطنها ومزق صمتها . . دائما يفضحها بطنها . . دائما يختار بطنها الوقت غير المناسب ليصوت . . فوخزته وشكته . . فهو بطن قليل الذوق والحياء . . ثم نهض تولستوى من مقعده ، واتجه إلى الثلاجة وفتحها . . أتختنق وهو معها ؟ . . لم تخل على زواجها ساعات ! . . يا وينها ! واندفع اللهواء كالصاروخ إلى الحجرة ، وحاصرها ببرده وصقيعه . . فارتجفت . . ثم أغلق تولستوى الثلاجة وأسدل عليها الستارة . . يا ليته يتسمر فى مكانه . . ولكنه يتقدم نحوها . . فتصب العرق من كل مسامها من شدة رعبها واضطرابها . . إنه يقترب منها أكثر

وأكثر . صبغهم عليا وبدرسها . وبأحذيتها ، فوق هذه الكتلة الحمراء ، هذه النجمة البشعة التي كثيرا ما تكلم عنها في يومياته . لا . لن نستسلم لك . لا . سنقاومك . إنه وحش ! . . غول . . ثور ! . .

وفي هذه الليلة سقطت اللمسة الأخيرة . وانتصر تولستوي على المهرة الأبية العنان . وأصبح أبا عذريتها . وباتت سونيا بليلة شيطاء . فقد غلبها زوجها على نفسها ، في ليلة زفافها . بعد معركة ضارية . عرف الناهما أن تفاحة عمره هو ناب من حديد ، وظفر شره عنيد . وللذكرى والتاريخ ، سجل في يومياته في نفس الليلة ، النبأ الأمر . إنها تعرف كل شيء . . بيريوليفو . . معركة رهيبة ، إن رعبها لمرضي ! . أخذت فتاة مذعورة ، وتركت امرأة مينة النظر حية الصوت .

رنين الحب الغبي !

وفي مساء يوم ٢٤ سبتمبر وقفت العربة (التاخة) أمام مدخل « آياسايا بوليانا » ، وكان في انتظار العروسين ، سرج ، أخو ليون ، وه توانيت ، العمة العانس التي ربته . . فقد ماتت أم تولستوي وعمره ثلاثة وعشرون شهرا ، ومات أبوه وعمره تسع سنوات . . وتقدم سرج نحو العروس وبين يديه صينية من الفضة فوقها عيش وملح رمز الترحيب والضيافة . ونثرت العمة فوق رأس العروسين أرزا رمز الخصوبة ، ثم باركتهما بأيقونة العذراء .

وفي اليوم التالي قفز قلم تولستوي يطرب فوق الورق . وكتب « سعادة مهولة . . سندوم مادمت أتنفس . من المستحيل أن تنتهي إلا بنهاية حياتي » .

وعين الشمس ترنو من بعيد إلى سعادته . . وهو يرنو من قريب إلى سونيا . . إن جمالها يجذبه ، وشبابها يقلب كيانه . . إنها طفلة صغيرة تريد أن تبدو كبيرة . . وما أحلى اللعب مع « امرأة طفلة » . . إنها دمينه الملاعبة ، ولعبته المداعبة . . إنها مهرته وغزالته وبقرته الوحشية التي يود في كل لحظة أن يصطادها ، ويحملها بين ذراعيه ويطير بها إلى حجرتها ، ويحطها بقبلاته . . وقبلة بعد قبلة وضمة بعد ضمة ، وقضمة بعد قضمة يأكلها ويشربها . . إن حياته نعيم في نعيم . . وقلمه المذهول يكتب ويقول لعمته وناجيته الكسندرين « عشت أربعا وثلاثين سنة من غير أن أعرف أنه من الممكن أن أحب بهذا القدر ، وأكون سعيدا بهذا القدر . . أحس على الدوام أنني اختلست سعادة لا أستحقها ولا أستأهلها » .

ولدغت الغيرة قلب سونيا . . أجيرت عليه بعد خمسة أيام من الزواج أن يجونها بقلمه ويتحدث مع غيرها ؟ ! . . لا يهم أبدا إن كانت عمته أوجدته . . المهم أنها امرأة غيرها ، ونقرته بكلمة . . فنقرها بكلمتين . . فجرت دموعها وسقطت على خدودها . . فشربها دمعة دمعة . . وانتشى بقطر الندى . . وسكر قلمه ، وترنم فوق الورق وهو يدندن « ٢٨ سبتمبر : كم هي لذيذة وهي تبكي ! . . أحبها أكثر فأكثر » .

وبعد يومين ضبطها والقلم في يدها ، وهي تثرثر مع أختها تانيا . . فمال فوق كتفها ، وخطف القلم منها وكتب « عزيزتي تانيا . . ارثي لحالي . . زوجتي غبية ! » .

فخطفت منه سونيا القلم وكتبت بدورها « تانيا . . هو الغبي لا أنا » . . وأعجب تولستوي بهذه اللعبة . . واستمر في اللعب . . وكتب « لابد أن يكون هذا النبأ المفجع قد أحزنك ، ولكن بعد الحزن يجيء العزاء والسلوى . . وأنا وسونيا سعيدان جدا بحالنا ، ولن نفرط فيه أبدا » . . فخطفت منه سونيا القلم من جديد ، و نبحت : « ولكني أريده أن يكون أذكى مني ! » .

ثم انفجر السعيد والسعيدة في الضحك . . فحماقاتهما ما هي إلا صدى رنين حبهما الكبير .

وسونيا لم تكن أبدا « امرأة طفلة » حسب ظن عريسها ، إنما كانت « امرأة امرأة » . وتجرد أن وطئت قدماها البيت . . قبضت يد من حديد على زمام الأمور ، وأدارت دفتها بعزم وحزم ، وبرغبت سلطتها على كل من في البيت ، وعلى رأسهم زوجها . . فلم تعجبها بعض عاداته ، ونهته عنها . . فقد كان ينام على طريقة الفلاحين على الأرض أو فوق كنبة ، ملقا بعظاء ، ورأسه فوق وسادة من الخشب . . فأجبرته على أن ينام في سريره عليه مرتبة فوقها ملاءة ، ويسند رأسه على وسادة محشوة بريش النعام . . ولم يعجبها أيضا أن ينام الخدم على الأرض في بهو البيت وفي ردهاته وحيثما يحلو لهم . وخصصت لكل منهم مكانا ثابتا ومحددا ينام فيه كل ليلة .

وفي أول الأمر وجدت ذات الأمر والنهي صعوبة بالغة في التحكم في الخدم ، وإرغامهم على تنفيذ أوامرها . . فقد تركت لهم العمة توانيت الحبل على الغارب . . واعتادوا على الكسل والبلادة . . فالطباخ نيقولا يفضل العرف على الناي على إعداد الطعام ، ويترك هذه المهمة لمساعده الأبله أليوشا ، الذي لا يعرف كيف يقلي بيضة أو حتى يسلقها . . وأجانا رئيسة الخدم لا تفارق الإبر التريكو بيديها ، حتى وهي تمشي تشتغل تريكو . . كما أنها تعشق الحيوانات والحشرات إلى حد أنها تغذي الفئران بالبن ، والعناكب بالذباب ، وبصفتها المسئولة عن نسل كلاب الكونت ، فهي تحتفظ بالأجربة في حجرتها ، وتغطيها بقمصانها خوفا من إصابتها بالزكام . . وإذا عطس جرو أو جروة فهي تشعل شمعة أمام أيقونة القديس نيقولا . . وإذا ارتفعت درجة حرارة كلب فلا تغمض لها عين ، ولا تكف عن الصلاة إلا بعد شفائه . .

ودروبناشا التي مهمتها كنس التراب ، تنام طوال النهار فوق التراب . . والغسالة وبناتها لا يفعلن شيئا . . والخوذي لا يغسل العربة . . وعشرات غيرهم يعيشون في تبلة ما بعدها تبلة . .

وجلجل صوت سونيا في كل أرجاء البيت . . وصيحة ثم زعقة . . فاستيقظ النائمة من نومهم العميق . . ومن حين لآخر كانت تصب شقاياها صوتها طيلة أذن زوجها ، ولا يصدق أذنه ويكذبها . . فلا يمكن أن يكون هذا الصوت المخجل هو صوت طفلته ودميته .

اخطبوط الملل !

وبعد أن انتهت سونيا من عملية الضبط والربط . . واستقرت الأمور في البيت . . نظرت حولها . . فوجدت من أمامها الفراغ اللامتناهي . . ومن ورائها الفطام النهائي من أمها وأسرتها . . وعن يمينها الملل . . وعن يسارها الكآبة . . إنها ترعرعت في بيت كله صخب وضجيج ، وضحك ومرح ، وشباب وحيوية . . وهنا لا شيء سوى الصمت المميت والجدوء الكئيب ، وعطر الشيخوخة الذي يطفو حول العمة . . وزوجها يوما بعد يوم يبعد عنها ، فهو مشغول في إدارة ضيعته ، وكلما هرب من سجن عينيها تعانقها الوحشة . . فتعانق قلمها ، وتسود الورق بأشجانها ، ويفوح عطر الأسى من كلماتها ، ويعبق يومياتها .

« الوحشة تقتلني . . كم أنا مشتاقة إلى أمي وإلى تانيا وإلى بيتنا وضجيجه . . هنا أعيش في صمت طويل رتيب . . لا صوت ولا حس . كآبتي متنامية . . وهذا الإحساس يتنامى في كل مرة يغيب فيها ليوفوتشكا عن البيت ، وهو لأنه معتاد مني طفولته على الوحشة ، يجد صعوبة في فهم إحساسي . . كم أود أن أصبح رنة ضحكة واحدة في هذا البيت . . ولكن كل شيء هنا ميت وبلا نبض . . العمة توانيت تعاملني بحنان . . ولكن حرام أن أمضي يومي كله في وجهها . . إنها عجوز ! » .

ولكن المثل الحظوظ ، ومن يستسلم له يمت بين أذرعه . .

وانتشلت سونيا نفسها من بين أذرع الاحطوط ، وارتمت في أحضان الأعمال المنزلية . . وذهبت وجاءت من البيت إلى الغيط ، ومن عشة الفراخ إلى عشة الأرانب ، ومن حجرة الخزين إلى المطبخ . . ورافقت الفلاحات وهن يحلبن البقر . . ووقفت على رأس الطباخ وهو يخلل الخيار . . وأمسكت كل دفاتر الحساب حتى لا يضحك أحد على ذقنها . . وأصبحت حفا وإحقاقا ربة البيت ومديرته .

تفاحة القلب

وغار منها تولستوي . . وقرر هو الآخر أن يدير بنفسه شئون أرضه . . وهو يملك الآن ٧٣٧ هكتارا . . أي حوالي ألف و ٨٢٣ فدانا . . وذلك بعد أن اضطر إلى بيع ما يزيد على ألفي فدان لتسديد ديون القمار . . وزرع كرنبا لأنه يحب محشو الكرنب . . وزرع أشجار تفاح لأنه يحب زوجته تفاحة قلبه وعمره . . ولخليدا لذكرى شهر العسل قرر ألا يأكل عسلا إلا من إنتاج نحله . . وأحضر مئات من ملكات النحل ، وآلافا من العاملات من ألمانيا ، وبنى منحلة بجوار العاية . . ثم رأى عند مزارع من جيرانه خنزيرا سمينا أعجبه ، ولما عرف أنه بابلي الأصل استورد خنازير بابلية . . وتركها في رعاية صديق له سكير ، لعل العمل والمسئولية يبعدانه عن الخمر . . ولكن الصديق فضل لقب « سكير » على لقب « راعي الخنازير » . . وترك الخنازير تموت جوعا . . واعتقد تولستوي أن خنازيره أصابتها العين ، وحط عليها وباء مجهول ، فلم يشتر غيرها . . واتجه إلى مشروع آخر ، هو بناء مصنع لتقطير الشعير وصنع الفودكا ، حتى يعوض خسائره المالية الخنازيرية الفادحة ، وفضفض في يومياته عن أشجانه ومطامعه المالية . . وكتب :

« اهتماماتي الوحيدة الآن هي المال والمال والمال . . لابد أن أعوض خسائري » .

فرد عليه قلم سونيا وهو يصرخ في وجهه بغيظ « هذا الرجل أمره عجيب ! . . همه الوحيد على الأرض كسب المال ، وإدارة ضيعته ، ومصنع التقطير . وحينما لا يكون مشغولا بالأكل أو بالنوم أو بالسكوت . . فهو يجري ويجري يمينا ويسارا . . ودائما وحده . . ودائما وراءه مجموعة من صيان القرية ! » .

وهؤلاء الصيان كانوا قبل زواج سونيا . . تلاميذ يتعلمون في المدارس التي أنشأها لهم زوجها . . ولكن تولستوي بعد أسبوع واحد من زواجه كتب في يومياته « ودعت التلاميذ والشعب . . لم يعد يهمني أحد في الدنيا سوى سونيا » . . ثم كتب بعد أسبوعين « قررت إغلاق المدارس » . . هذا مع العلم بأنه قبل الزواج بقليل كان يقول إن تعليم الفلاحين والشعب هو الهدف الأول لحياته . . ولكنه كعادته يتمسك بالشيء ، ثم لا يلبث أن يدعه لعكسه . .

وأحس التلاميذ بالخطر . . واعتبروا سونيا عدوتهم رقم واحد . . فبادلتهم العداء بالعداء ، فخطفوا منها زوجها . . فانتقمت منهم . . ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها . ■